اسم الدرس : تفسير سورة الشرح

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، سيدنا محمد -صلى الله عليه وسلم- أما بعد:

بإذن الله عز وجل نستكمل سويًا تفسير جزء عم، معنا اليوم "سورة الشرح".

"سورة الشرح"

جمهور المفسرين اتفقوا على أنها سورة مكية، وإن كان قد خالفهم بعض المتأخرين مثل الإمام القاسمي؛ فقد نقل رواية عن ابن عباس أنها مدنية، ولكن جمهور المفسرين وسياق الآيات وجو السورة يناسب فعلًا الجو المكي.

وكثير من العلماء والمفسرين يعتبرونها امتدادًا لمعاني سورة الضحى وخاصةً أنها من السور التي خاطبت النبي صلى الله عليه وسلم خطابًا "خاصًا" .

فهناك سور نزلت مخصوصة تُخاطب النبي صلى الله عليه وسلم مثل: إنا أعطيناك الكوثر، وسورة الضحى، وسورة الشرح ، وهى تُظهر نعمة الله عز وجل على النبي -صلى الله عليه وسلم- وتخصه بالكرامة والعطاء، وتبين مدى فضل الله عز وجل عليه.

وجه الاستفادة من السور الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم

ويمكن أن يسأل أحدكم ما وجه الاستفادة من هذه السور ما دامت خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم؟

نقول: مثلما ذكرنا من قبل في القاعدة التي بشّر بها كثير من العلماء، أن المقامات الخاصة بالأنبياء يكون لأتباعهم نصيب منها ما لم يكن هذا المقام مخصوصًا بالنبي.

فالوحي مثلًا من المقامات الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم، لكن البُشريات: من العطاء، والتوفيق، والسداد، والرفعة في الدرجات، والحفظ من السيئات والمكروهات، هذه عطاءات للأنبياء وعدهم الله عز وجل بها، وينال المؤمن نصيب من هذه العطايا على قدر اتباعه للنبي صلى الله عليه وسلم.

مثل قول الله سبحانه وتعالى (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)[الأنفال:٦٤] أي ومن اتبعك من المؤمنين أيضًا حسبهم الله.. أي أن الله عز وجل يكفيك، فالحَسْب هو الكافي، ويكفي أيضًا من اتبعك، لم يقل الله عز وجل يا أيها النبي حسبك الله والمؤمنين، ولكن (حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ)

لذلك الكلمة المشهورة لشيخ الاسلام: الكفاية -أي أن الله عز وجل يكفيك همومك- الكفاية على قدر الاتباع والناقصة بالناقصة.. فعلى قدر اتباعك للنبي صلى الله عليه وسلم يكفيك الله عز وجل أمورك والناقصة بالناقصة.

تذكر النعم الماضية

فامتدادًا لما ذُكر من نعم، ذكّر الله عز وجل بها نبيه صلى الله عليه وسلم "أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَوَجَدَكَ عَائِلًا فأغنى"[الضحى:٦-٨] في سورة الضحى

فقال الله عز وجل في هذه السورة:

"أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ * فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ * وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ" [الشرح]

طبعًا السورة مليئة بالمعاني، وخاصة من يعيش جو السورة، ومن أجواء السورة -مثلما ذكرنا أيضًا في سورة الضحى عندما أتت بعد سورة الليل- أنها نزلت في وقت شدة وفي وقت عسر، ويدل على ذلك أيضًا ألفاظ السورة التي فيها تكرار (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)

عندما أقول لك أن الله عز وجل سوف يأتِ بالفرج قريباً، وأكرر عليك هذا المعنى، فبالتأكيد أنك في موقف صعب، والنفس البشرية تحتاج إلى تأكيد لهذا المعنى، فكلما ادلهمت الأمور واشتدت الصعاب، احتاج الإنسان إلى تثبيت أعظم.

ولذلك أيضًا من المعاني التي من المفترض تكرارها في أوقات الشدة وأوقات العسر وأوقات الاستضعاف هذه المعاني التي ذُكرت في سورة الشرح، وسوف نذكرها بإذن الله تعالى.

بدأت السورة بقول الله سبحانه وتعالى للنبي صلى الله عليه وسلم "ألم نشرح لك صدرك"

هنا تقرير، وإن كان هناك خلاف بلاغي هل هذه الهمزة همزة تقرير أم إنكار، ولكن الإنكار هنا هو إنكار لعدم الشرح، فيكون المعنى إثبات الشرح، ولذلك فإن الكل متفق على أن معنى الآية: لقد شرحنا لك صدرك، قالوا: والدليل العطف عليها "ووضعنا" بالفعل الماضي، فهي تقرير أن الله عز وجل شرح للنبي صلى الله عليه وسلم صدره.

النعم والعطايا التي ذكّر الله عز وجل بها النبي صلى الله عليه وسلم في سورة الضحى، عندما قال له "ألم يجدك يتيمًا فآوى *ووجدك ضالًا فهدى * ووجدك عائلًا فأغنى" قيل أنها تذكير بنعم ما قبل الرسالة، وأن سورة الشرح ما بعد الرسالة أو بدايات الرسالة.. وعلى كل حال فهذا استمرار للتذكير بالنعم، وأن من الواجب على الإنسان في أوقات العسر أن يتذكر النعم الماضية حتى لا يصيبه اليأس عندما يمر بظروف صعبة، فتذكُر النعم الماضية من سبل الحصول على اليسر وانشراح الصدر في أوقات العسر.

أوقات العسر وما يجب على الإنسان فيهم

السورة اسمها الشرح وفيها (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)

إذًا في أوقات العسر يبحث الإنسان عن شيئين: عن شرح الصدر وعن تيسير الأمر، وقد طلبهما موسى عليه السلام عندما أمره الله عز وجل بدعوة فرعون وقومه، فقال موسى عليه السلام "رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري"[طه:٢٥-٢٦] ، فبدأت السورة أيضًا بالشرح وبشرت بالتيسير،

فبدأت: "ألم نشرح" ثم (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا)..

إذًا في الأمور الصعبة أنت تبحث عن شيئين: شرح الصدر وتيسير الأمر، ودائمًا الشرح أهم، شرح الصدر أهم من تيسير الأمر، وسنذكر السبب بإذن الله تعالى، فالشرح هو الذي بُدِأت به السورة وهو الذي بدأ به موسى عليه السلام لما طلب فقال "رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري".

إذًا في الأمور الصعبة أنت تبحث عن شيئين: شرح صدرك وتيسير أمرك.

من الوسائل التي تساعد على أن ينشرح صدرك، وأن تمارس المهام الصعبة بانشراح صدر، تذَكُّرُ نعم الله عز وجل عليك، ليس نعم أمس وأول أمس، وإنما تتذكر نعمه عليك وأنت لا تزال نطفة، وكيف حفظك الله عز وجل، وكيف لطف بك حتى وصلت إلى هذه المرحلة، فلُطْفُ الله سبحانه وتعالى في الماضي يستمر معك بإذن الله عز وجل في المستقبل، فالذي أعطاك في الماضي هو كريم وقدير؛ لأنه أعطاك في أوقات يستحيل لأحد أن يلطف بك فيها! وأنت في بطن أمك، وأنت مجرد نطفة، من الذي يصل إليك في هذه اللحظات؟!

"يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ"[الزمر:٦] من الذي يصل إليك؟! إنه الملك سبحانه وتعالى!

فالذي أعطاك هو قدير وهو كريم؛ لأنه أعطاك دون أن تفعل شيئًا، فأنت في الأصل لم تقدم شيئًا مقابل هذه العطايا، فمن أسباب شرح الصدر تذكر النعم الماضية.

فلما جاء وقت العسر في السورة، وكأنها تقول له: تذكّر النعم الماضية، تذكر أن الله عز وجل قد شرح لك صدرك ووضع عنك وزرك.

معنى الشرح

وأما معنى شرح الصدر ووضع الوزر فهذا ما حدث فيه خلاف بين العلماء.. "ألم نشرح لك صدرك" أولًا نُفصل لفظة الشرح ثم نقول ماذا قال العلماء فيها، الشرح: قالوا الشيء المغلق أو المصمت عندما تأخذ منه شريحة فأنت كسرت هذا الإغلاق، عندما تُشْكل عليك مسألة وتطلب مني أن أشرحها لك، فإذا شرحتُها لك انكشف هذا الإغلاق.

فقالوا الشرح من معانيه: فك الإغلاق والضيق، عندما يكون هناك شيء مغلق يأتِ الشرح ليفك هذا الإغلاق.

لذلك عندما كنا نفسر سورة الأنعام "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا"[الأنعام:١٢٥] فعكس الشرح: الضيق والحرج، نوضح معنى الحرج بهذا المثال: عندما يريد حيوان أن يهرب فيدخل في أشجار متداخلة، فيعلق فيها ولا يستطيع الخروج، هذا هو الحرج، يقولون وقع في حرج بمعنى التداخل والاشتباك والضيق، هذا من معاني الحرج، وعكسه الشرح.

فعليك أن تحرص على انشراح صدرك، لماذا؟ لأن صدرك كلما اتسع كلما استقبل أوامر ربه عز وجل بسهولة، وكلما ضاق لا يستطيع أن يتقبل أوامر الله سبحانه وتعالى .

إذًا من معاني الشرح "الاتساع"، هناك أشياء تكون داخل الصدر تمنعك أن تتلقى الأوامر، هذه الأشياء يمكن أن تكون شكًا، ريبة، غمًا، همًا، خوفًا، عجزًا، أي شيء في الصدر، أي مشاعر تمنعك من تلقي الأوامر الشرعية وتطبيقها، يأتِ الشرح ليزيل هذه المشاعر.

وأيضًا الحسد والغيرة والخوف على الرزق، هذه أشياء يمكن أن تمنعك من العمل للدين أو عمل الطاعات، فيأتِ الشرح ليزيل هذه الأشياء.

لذلك لما قال الله عز وجل لموسى عليه السلام "اذهب إلى فرعون إنه طغى"[طه:٢٤] يقول سبحانه وتعالى له اذهب لطاغية وادعه إلى الله، فكان أول طلب "رب اشرح لي صدري"[طه:٢٥] سيدنا موسى يريد أن يُزال أي مانع يرِد على صدره، يريد أن يتسع صدره لقبول الأوامر، فعندما ينشرح صدر العبد يُقبل على قيام الليل والإنفاق والدعوة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بصدر رحب ليس فيه أي حرج.

(اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل وغلبة الدين وقهر الرجال)[1]

آخر اثنتين فقط فيها أمور خارجية: الدين وقهر الرجال، أما الستة الأولى كلها مشاعر تمنعك (أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والجبن والبخل) كلها مشاعر داخل الإنسان تمنعه من الطاعات.. كثير من الطاعات لا تفعلها لماذا؟ خائف.. حزين.. مهموم.. عاجز.. كسلان.. بخيل.. الشرح سوف يزيل كل هذا ويجعلك مقبل على الطاعات.

لذلك من معاني شرح الصدر، أن يحبب الله تعالى إليك الطاعة، وهنيئًا لمن حبب الله له ثغره، هنيئًا له؛ مثل طالب العلم الذى يحبب الله تعالى له السهر على الكتب، والمجاهد الذي يُحبب إليه السهر لحراسة الثغور، أو من يُحبب له الإنفاق وبذل الأموال والدماء.. هنيئًا لهم، تجد من يتعامل مع ثغره لنصرة الدين بحب، لا يحتاج من يدفعه دفعًا للعمل، وهناك من يكون مثل الجن عندما كانوا مسخرين لسيدنا سليمان عليه السلام فقال الله عز وجل: (فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ...)[سبأ:١٤] مثلما شرحنا في سورة سبأ، (فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ) [سبأ:١٤]، بالرغم من أنهم كانوا يعملون الخيرات –فسيدنا سليمان لم يأمرهم بعمل الشرور وإنما بعمل الخير– بالرغم من عملهم في الخير إلا أنهم في تصورهم أنهم في عذاب مهين، فهناك من يعمل للدين ويشعر أنه مُتعَب جدًا.

لكن على الجانب الآخر هناك من يعمل للدين حتى وهو يموت، حتى وهو يبذل كل شيء، تجده منشرح الصدر، انشراح الصدر يحول المعاناة والألم إلى لذة ومتعة، إذا شرح الله تعالى صدرك تجد أنك وإن بذلت مجهودًا مُضاعفًا إلا أنك سعيد ومطمئن بعكس الآخرين، المجهود الذى يبذله غيرك في مذاكرة شيء مثلًا ويشعر بالتعب والضيق والضجر، أنت تبذله في طلب العلم وأنت في قمة السعادة، تتمنى أن يطول الليل أكثر لتقضيه في قيام الليل وفي طلب العلم وفي نصرة الدين، تتمنى ذلك، تتمنى أن تقل أوقات النوم، وأوقات الطعام، وتزيد أوقات النصرة، أنت تتمنى ذلك، هذا إذا انشرح صدرك.

فانشراح الصدر: أن يكون متسعًا فيقبل أكبر كم من الأوامر، كلما ضاق الصدر، أو انغلق، كلما صد الأوامر، ولم يعد هناك مكان لقيام الليل، يصلي في المسجد بمشقة، ولو ضاق أكثر فلن يكون هناك

---

١ [عن أنس بن مالك:] اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الهَمِّ والحَزَنِ، والعَجْزِ والكَسَلِ، والجُبْنِ والبُخْلِ، وضَلَعِ الدَّيْنِ، وغَلَبَةِ الرِّجالِ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٣٦٩ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٦٣٦٩) واللفظ له، ومسلم (٢٧٠٦) بنحوه

مكان للصلاة في المسجد! كلما يضيق الصدر تقبل أوامر قليلة، فالانشراح التام هو قبول كل أحكام الإسلام، والضيق التام هو رد كل أحكام الإسلام، لذلك قال الله عز وجل أن الذي يريد أن يهديه للإسلام (يَشْرَحْ صَدْرَهُ)، والذي يريد أن يضله (يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا) فلا يقبل أوامر الإسلام، تجده يقول لا أقدر، والعياذ بالله يُصعّب عليه الأمر، وتحدثنا المرة السابقة في سورة الليل كيف أن إنسانًا يُمكن أن يُيسَّر للعسرى والعياذ بالله.

فقال الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ).

شرح الصدر للنبي صلى الله عليه وسلم

إذًا ما هو شرح الصدر للنبي صلى الله عليه وسلم بعد أن فهمنا معنى الشرح عمومًا؟

شرح الصدر هنا للنبي صلى الله عليه وسلم خصوصًا لإن كلمة (لك) فيها خصوصية، فكان من الممكن أن يقول الله سبحانه وتعالى (ألم نشرح صدرك ووضعنا وزرك)، ولكنه سبحانه وتعالى قال (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ) خصوصية، فهو شرح خاص للنبي صلى الله عليه وسلم.

وقيل أن هذا الشرح أحد معاني العملية التي تمت للنبي صلى الله عليه وسلم، عندما نزلت الملائكة وفتحت صدر النبي صلى الله عليه وسلم، وأخرجت القلب وأخرجت منه المضغة السوداء –أي: حظ الشيطان من النبي صلى الله عليه وسلم– ثم أعادته، وهذه القصة ثابتة في الصحيح؛ ولكن كثيرًا من العلماء منهم ابن كثير قالوا لا يشترط أن يكون هذا المراد الأوحد، ولكن هناك شرح معنوي، وهذا الشرح الحسي في هذه العملية (الفتح الحقيقي لصدر النبي صلى الله عليه وسلم) يلزم منه أيضًا شرح الصدر المعنوي، فالله سبحانه وتعالى يقول له: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ): أي ألم نجعلك تتقبل الإسلام والرسالة وحمل الرسالة بقمة السرور.

فالنبي صلى الله عليه وسلم أول ما نزل عليه الوحي خاف صلى الله عليه وسلم، وقال "زملوني إني خشيت على نفسي"، وقال: "يا خديجة، إني خشيت على نفسي"[٢]، ثم شرح الله صدره للرسالة.

أتعلم معنى أن تكون مطالبًا أن تحمل الرسالة للعالمين وأنت وحدك في بداية هذا الأمر، والكل يحاربك حتى أقرب الناس إليك، عمك، فتخيل كم تحتاج أنت من القوة وكم تحتاج من شرح الصدر!

ولذلك حينما تمر بأوقات صعبة في التزامك، وتضيق عليك الدنيا، تذكر لحظات الالتزام الأولى، كيف كنت واقفًا ضد الدنيا كلها وحدك، من الذي شرح لك صدرك في هذه اللحظات؟!

قرارات الالتزام الأولى وقرارات الطاعات الصعبة الأولى تجد أن الإنسان يأخذها بعزيمة، والدنيا كلها ضده وهو يأخذ القرار ويقف ضدهم، ومع طول الالتزام وطول المدة من الممكن أن يفتر بعض الشيء، فتمر عليه مواقف صعبة فيستصعب الطريق، فعندها نقول له: تذكر أن الذي شرح صدرك في اللحظات الأولى يشرح صدرك أيضًا في هذه اللحظات، لا تستصعب الأمور، الذي شرح لك صدرك وأنت ضعيف ولم تبذل شيئًا يشرح لك صدرك الآن وأنت بفضل الله عز وجل قطعت شوطًا في الطاعات وقدَّمت لنصرة الدين.

إذًا (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) شرح الصدر هنا أي أن صدر النبي صلى الله عليه وسلم مُلأ إيمانًا وحكمة، وأن صدره صلى الله عليه وسلم أصبح يقبل كل أوامر الدين، لا يفرط في شيء منها، ويبذل كل ما يملك لنصرة الدين "وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ"[المدثر:٦] أي ولا يستكثر شيئًا أبدًا لنصرة دين الله سبحانه وتعالى، وتتحول هذه المعاناة التي يجدها النبي صلى الله عليه وسلم من الأعداء والمنافقين وغير ذلك إلى لذة ومتعة لنصرة هذا الدين.

فما أهنأ من شرح الله له صدره فيجد أن الناس مرهقة من مجهودٍ ما، وهو يعمل أضعاف هذا المجهود وهو منشرح الصدر، فأنت من الممكن أن تتعجب من شخص يظل بالساعات يطلب علمًا، أو يجاهد في الدعوة وهو سعيد!

---

٢ [عن جابر بن عبدالله:] قالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ وهو يُحَدِّثُ عن فَتْرَةِ الوَحْيِ، قالَ في حَدِيثِهِ: بَيْنا أنا أمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّماءِ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فإذا المَلَكُ الذي جاءَنِي بحِراءٍ جالِسٌ على كُرْسِيٍّ بيْنَ السَّماءِ والأرْضِ، فَفَرِقْتُ منه، فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَدَثَّرُوهُ، فأنْزَلَ اللَّهُ تَعالَى: (يا أيُّها المُدَّثِّرُ قُمْ فأنْذِرْ ورَبَّكَ فَكَبِّرْ وثِيابَكَ فَطَهِّرْ والرُّجْزَ فاهْجُرْ) - قالَ أبو سَلَمَةَ: وهي الأوْثانُ الَّتي كانَ أهْلُ الجاهِلِيَّةِ يَعْبُدُونَ - قالَ: ثُمَّ تَتابَعَ الوَحْيُ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٩٥٤ • [صحيح] •

هذا هو شرح الصدر.

وأيضًا من معاني شرح الصدر في قوله: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) إذا ربطناها بسورة الضحى، سورة الضحى نزلت في فَترةٍ من الوحي، أي فتور وانقطاع الوحي، فربنا يقول له "أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ" ونعيد الوحي مرة أخرى، فالذي أعاد لك الوحي مرة أخرى يتم لك الأمر وينشر لك الدين، فاستبشر بنزول القرآن، وكأن صدر النبي صلى الله عليه وسلم ينشرح عندما ينزل عليه القرآن، إذًا أعلى شيء يجعل صدرك ينشرح هو تلقي القرآن، عندما تقرأ القرآن وتتلقى القرآن تلقيًّا حقيقيًّا تجد أن صدرك ينشرح! لماذا؟ لأنه لم يعد هناك هموم ومشاكل، أي مشكلة تحدث، تقرأ في القرآن أن الله قادر على حل جميع مشاكلك، أي أزمة تقرأ في القرآن أن الدين مر بأزمات أصعب ومرت، أي ظالم أو طاغية تراه، تقرأ في القرآن أنه كان هناك من هو أظلم وأطغى والله أهلكه، أي مظلوم مات ظلمًا تقرأ في القرآن أن هناك يوم القيامة والكل سيحاسب وأن الأمر لم ينته بعد، أصحاب الأخدود أحرقوا بالنار ولكن القصة لم تنته بعد، فلا تبكِ على شيء.

فعندما ينزل القرآن يجعل صدرك منشرحًا، تجد عندك عزيمة وأملًا وبذلًا وقوة، ينقلب حالك رأسًا على عقب، فلذلك لما نزلت آل عمران حولت جيش المسلمين وهو عائد من غزوة أحد –النصف الأخير من آل عمران– كانوا في ضيق وإرهاق شديد وفي حالة من عدم الاستيعاب لما يحدث "أنّى هذا"[ال عمران:١٦٥] انظر إلى الآية وهي تعبر عن التحول الذي حدث لهم (الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ)[ال عمران:١٧٢]، وألم القرح هو ألم الجرح الذي معه ألم، ليس جرحًا عاديًا، جرح وألم شديد، يتألم لأن القرح فيه نزع، وبالرغم من أنهم يتألمون لكنهم استجابوا، فشخص يتألم نفسيًا وبدنيًا لكن استجاب بالرغم من الألم، كيف؟ لأن الزاد الذي نزل عليه أقوى من الألم، مثلما تكلمنا المرة السابقة (إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ)[النساء:١٠٤]

فهذا شرح الصدر الذي يجعلك تبذل، من أين جاء؟

من القرآن.

لذلك من الوظائف الهامة في أوقات الاستضعاف الإكثار من البُشْريات، أن نتذكر دائمًا هدي الأنبياء كما في قوله تعالى (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا

الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ)[يونس:٨٧] فمن وظائف الأنبياء في أوقات الاستضعاف أن يبشروا المؤمنين، النبي صلى الله عليه وسلم في مكة في قمة التعذيب والاستضعاف يبشّر، عندما يأتِ سيدنا خباب وظهره مليء بالحفر من الضرب والتعذيب ويتألم والنبي يقول له: "والله ليتمنّ الله هذا الأمر"[٣]، وفي الهجرة[٤] يبشّر سراقة[٥]، وفي الغار يبشّر أبا بكر، وفي الأحزاب يبشّر المؤمنين[٦]، في كل أوقات يبشّر النبي صلى الله عليه وسلم، هذا هو شرح الصدر.

---

٣ [عن خباب بن الأرت:] شَكَوْنا إلى رَسولِ اللَّهِ ﷺوهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنا: ألا تَسْتَنْصِرُ لنا ألا تَدْعُو لَنا؟ فقالَ: قدْ كانَ مَن قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فيُحْفَرُ له في الأرْضِ، فيُجْعَلُ فيها، فيُجاءُ بالمِنْشارِ فيُوضَعُ على رَأْسِهِ فيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، ويُمْشَطُ بأمْشاطِ الحَدِيدِ، ما دُونَ لَحْمِهِ وعَظْمِهِ، فَما يَصُدُّهُ ذلكَ عن دِينِهِ، واللَّهِ لَيَتِمَّنَّ هذا الأمْرُ، حتّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِن صَنْعاءَ إلى حَضْرَمَوْتَ، لا يَخافُ إلّا اللَّهَ، والذِّئْبَ على غَنَمِهِ، ولَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٩٤٣ • [صحيح] •

٤ [عن سراقة بن مالك:] جاءَنا رُسُلُ كُفّارِ قُرَيْشٍ، يَجْعَلُونَ في رَسولِ اللَّهِ ﷺ وأَبِي بَكْرٍ، دِيَةَ كُلِّ واحِدٍ منهما، مَن قَتَلَهُ أوْ أسَرَهُ، فَبيْنَا أنا جالِسٌ في مَجْلِسٍ مِن مَجالِسِ قَوْمِي بَنِي مُدْلِجٍ، أقْبَلَ رَجُلٌ منهمْ، حتّى قامَ علَيْنا ونَحْنُ جُلُوسٌ، فقالَ يا سُراقَةُ: إنِّي قدْ رَأَيْتُ آنِفًا أسْوِدَةً بالسّاحِلِ، أُراها مُحَمَّدًا وأَصْحابَهُ، قالَ سُراقَةُ: فَعَرَفْتُ أنَّهُمْ هُمْ، فَقُلْتُ له: إنَّهُمْ لَيْسُوا بهِمْ، ولَكِنَّكَ رَأَيْتَ فُلانًا وفُلانًا، انْطَلَقُوا بأَعْيُنِنا، ثُمَّ لَبِثْتُ في المَجْلِسِ ساعَةً، ثُمَّ قُمْتُ فَدَخَلْتُ فأمَرْتُ جارِيَتِي أنْ تَخْرُجَ بفَرَسِي، وهي مِن وراءِ أكَمَةٍ، فَتَحْبِسَها عَلَيَّ، وأَخَذْتُ رُمْحِي، فَخَرَجْتُ به مِن ظَهْرِ البَيْتِ، فَحَطَطْتُ بزُجِّهِ الأرْضَ، وخَفَضْتُ عالِيَهُ، حتّى أتَيْتُ فَرَسِي فَرَكِبْتُها، فَرَفَعْتُها تُقَرِّبُ بي، حتّى دَنَوْتُ منهمْ، فَعَثَرَتْ بي فَرَسِي، فَخَرَرْتُ عَنْها، فَقُمْتُ فأهْوَيْتُ يَدِي إلى كِنانَتِي، فاسْتَخْرَجْتُ مِنْها الأزْلامَ فاسْتَقْسَمْتُ بها: أضُرُّهُمْ أمْ لا، فَخَرَجَ الذي أكْرَهُ، فَرَكِبْتُ فَرَسِي، وعَصَيْتُ الأزْلامَ، تُقَرِّبُ بي حتّى إذا سَمِعْتُ قِراءَةَ رَسولِ اللَّهِ ﷺ، وهو لا يَلْتَفِتُ، وأَبُو بَكْرٍ يُكْثِرُ الِالْتِفاتَ، ساخَتْ يَدا فَرَسِي في الأرْضِ، حتّى بَلَغَتا الرُّكْبَتَيْنِ، فَخَرَرْتُ عَنْها، ثُمَّ زَجَرْتُها فَنَهَضَتْ، فَلَمْ تَكَدْ تُخْرِجُ يَدَيْها، فَلَمّا اسْتَوَتْ قائِمَةً، إذا لأثَرِ يَدَيْها عُثانٌ ساطِعٌ في السَّماءِ مِثْلُ الدُّخانِ، فاسْتَقْسَمْتُ بالأزْلامِ، فَخَرَجَ الذي أكْرَهُ، فَنادَيْتُهُمْ بالأمانِ فَوَقَفُوا، فَرَكِبْتُ فَرَسِي حتّى جِئْتُهُمْ، ووَقَعَ في نَفْسِي حِينَ لَقِيتُ ما لَقِيتُ مِنَ الحَبْسِ عنْهمْ، أنْ سَيَظْهَرُ أمْرُ رَسولِ اللَّهِ ﷺ. فَقُلْتُ له: إنَّ قَوْمَكَ قدْ جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ، وأَخْبَرْتُهُمْ أخْبارَ ما يُرِيدُ النّاسُ بهِمْ، وعَرَضْتُ عليهمُ الزّادَ والمَتاعَ، فَلَمْ يَرْزَآنِي ولَمْ يَسْألانِي، إلّا أنْ قالَ: أخْفِ عَنّا. فَسَألْتُهُ أنْ يَكْتُبَ لي كِتابَ أمْنٍ، فأمَرَ عامِرَ بنَ فُهَيْرَةَ فَكَتَبَ في رُقْعَةٍ مِن أدِيمٍ، ثُمَّ مَضى رَسولُ اللَّهِ ﷺ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٣٩٠٦ • [صحيح]

٥ [أما الزيادة (كيف بك إذا لبست سواري كسرى) فهي من المراسيل.
أوردها ابن عبد البر في الاستيعاب (٢ / ٥٨١، ترجمة ٩١٦) والحافظ ابن حجر في الإصابة (٣/ ٤١، ترجمة ٣١١٧) تعليقا عن سفيان بن عيينة عن أبي موسى عن الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسراقة بن مالك كيف بك إذا لبست سوارى كسرى قال فلما أتى عمر بسوارى كسرى ومنطقته وتاجه دعا سراقة بن مالك فألبسه إياها وكان سراقة رجلا أزب كثير شعر الساعدين وقال له ارفع يديك فقال الله أكبر الحمد لله الذي سلبها كسرى ابن هرمز الذي كان يقول أنا رب الناس وألبسها سراقة بن مالك بن جعشم أعرابي رجل من بني مدلج ورفع بها عمر صوته.
والشافعي في الأم (٤ / ١٥٧) ومن طريقه البيهقي في الكبرى (٦ /٣٥٧، رقم ١٢٨١٢) قال الشافعي: أخبرنا من أهل العلم أنه لما قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه بما أصيب بالعراق قال له صاحب بيت المال ألا أدخله بيت المال قال لا ورب الكعبة لا يؤوي تحت سقف بيت حتى أقسمه فأمر به فوضع في المسجد .....، وقال اللهم إني أعوذ بك أن أكون مستدرجا فإني أسمعك تقول سنستدرجهم من حيث لا يعلمون الآية ثم قال أين سراقة بن جعشم فأتي به أشعر الذراعين دقيقها فأعطاه سواري كسرى فقال ألبسها ففعل فقال الله أكبر ثم قال الحمد لله الذي سلبها كسرى بن هرمز وألبسها سراقة بن جعشم أعرابيا من بني مدلج وجعل يقلب بعض ذلك ببعض ثم قال إن الذي أدى هذا لأمين

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ) الداعية قطعًا سيمر بصعاب، والعامل للدين قطعًا سيمر بأوقات صعبة، يحتاج فيها إلى شرح الصدر، فلا يكون الحل إذًا عدم المواجهة، الحل أن يكون صدرك منشرحًا، أن يشرح الله لك صدرك حتى تستطيع أن تواجه المهام الصعبة.

عندما قال الله لسيدنا موسى اذهب لفرعون الطاغية (اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى)[طه:٢٤] لم يرد: أنا أريد شخصًا آخر ليس بطاغية، بل قال (رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي).[طه:٢٥-٢٦]

فنحن قلنا أن شرح الصدر أهم من تيسير الأمر، لماذا؟

لأنه إذا انشرح صدرك لشيء وبذلت فيه وهذا الأمر لم ينجح فلك الأجر، أما إذا تيسر الأمر وصدرك غير منشرح فلن تستطيع أن تعمل، فإذا كان حفظ القرآن متيسرًا، ولديك ألف محفظ يحفظونك القرآن، ولكن أنت صدرك مغلق، فلن تستطيع أن تحفظ، فالأمر متيسر لكن أنت صدرك مغلق غير منشرح، إذًا فالبداية في شرح الصدر، البداية داخلية، لذلك النعم هنا كلها معنوية، شرح الصدر ووضع الوزر ورفع الذكر، كلها نعم معنوية، وكل هذه النعم لا يستطيعها إلا الله، فنعم سورة الضحى مثل (يتيمًا فآوى)[الضحى:٦] قد يقوم بها بشر -وإن كانت هذه النعم التي في سورة الضحى لا يقوم بها على وجهها إلا الله سبحانه وتعالى- أما في سورة الشرح فلا يقوم بها أحد مطلقًا إلا الله! فشرح الصدر بيده سبحانه وتعالى فقط، وضع الوزر بيده سبحانه وحده، سواء بمغفرة الذنوب أو بمعنى آخر كما سنذكر، وكذلك رفع الذكر.

فقال له رجل أنا أخبرك أنت أمين الله وهم يؤدون إليك ما أديت إلى الله عز وجل فإذا رتعت رتعوا قال صدقت ثم فرقه قال الشافعي رحمه الله تعالى وإنما ألبسها سراقة لأن النبي صلى الله عليه وسلم " قال لسراقة ونظر إلى ذراعيه كأني بك وقد لبست سواري كسر "]

٦ [عن البراء بن عازب:] لما كان حين أمرنا رسولُ اللهِ ﷺ بحَفْرِ الخَنْدَقِ عَرَضَتْ لنا في بعضِ الخَنْدَقِ صخرةٌ لا نأخذُ فيها المَعاوِلَ، فاشتَكَيْنا ذلك إلى النبيِّ ﷺ، فجاء فأخذ المِعْوَلَ فقال: بسمِ اللهِ، فضرب ضربةً فكسر ثُلُثَها، وقال: اللهُ أكبرُ أُعْطِيتُ مَفاتيحَ الشامِ، واللهِ إني لَأُبْصِرُ قصورَها الحُمْرَ الساعةَ، ثم ضرب الثانيةَ فقطع الثُلُثَ الآخَرَ فقال: اللهُ أكبرُ، أُعْطِيتُ مفاتيحَ فارسٍ، واللهِ إني لَأُبْصِرُ قصرَ المدائنِ أبيضَ، ثم ضرب الثالثةَ وقال: بسمِ اللهِ، فقطع بَقِيَّةَ الحَجَرِ فقال: اللهُ أكبرُ أُعْطِيتُ مَفاتيحَ اليَمَنِ، واللهِ إني لَأُبْصِرُ أبوابَ صنعاءَ من مكاني هذا الساعةَ
ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢)، فتح الباري لابن حجر ٧/٤٥٨ • إسناده حسن • أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٨٨٥٨)، والروياني في «المسند» (٤١٠)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٤٢١/٣)

عندما جاء من يقول للنبي صلى الله عليه وسلم أنه شاعر وبليغ ومشهور وقال :إن مدحي زين وذمي شين، النبي صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه وسلم قال: ذاك الله[٧].

فرفع الذكر بيد الله كما قال إبراهيم: (واجعل لي لسان صدق في الآخرين)[الشعراء:٨٤] هذه لا يفعلها إلا الله ولا يقدر عليها إلا الله —سبحانه وتعالى—.

وضع الوزر

(ألم نشرح لك صدرك * ووضعنا عنك وزرك * الذي أنقض ظهرك)

الوزر: "الحمل الثقيل"

الوضع: أن الله يُذهِبُ عنك الحمل الثقيل

لذلك (عن) أحيانًا يسمونه حرف التحمل. كما يقال احمل عني.. أحد يتحمل عنك. .فهناك وزر ثقيل.

الوزر يكون بالمعنى المشهور أي: الذنب (وضعنا عنك وزرك) أي: الذنوب الصغيرة.

والعلماء تكلموا هل يذنب الأنبياء، وهل الأنبياء معصومون أم لا؟!

الراجح أنهم معصومون من الكبائر، بعض الصغائر –خاصة الصغائر التي لا تخل بمقام النبوة– قد يقع فيها الأنبياء؛ لكن لا نريد أن ندخل في هذا المبحث.

وقيل الوزر هو: الهفوات أو الاجتهاد الذي اجتهد فيه النبي –صلى الله عليه وسلم– و أخطأ، أو ما هو بين الحسن والأحسن (ترك الأوْلى)، وأن سيئات المقربين حسنات الأبرار، أو قول النبي –صلى الله عليه

٧ [عن الأقرع بن حابس:] عن الأقرعِ بنِ حابسٍ أنَّه قال إنَّ مدحي زينٌ ، وإنَّ ذَمّي شينٌ فقال له رسولُ اللهِ ﷺ ذاك اللهُ الَّذي لا إلهَ إلّا هو. العراقي (ت ٨٠٦)، تخريج الإحياء ٣٨٢/٣ • رجاله ثقات إلا أني لا أعرف لأبي سلمة بن عبد الرحمن سماعا من الأقرع

وسلم-: إنه ليُغَان على قلبي[٨]، سواء كان في الأوقات التي لا يستغفر فيها النبي —عليه الصلاة والسلام— أو في وقت انشغاله بأمته، أيًّا كان وضع الوزر.

لكن ما هي أوزار الدعاة التي يحملها الدعاة على ظهورهم حتى تكاد ظهورهم أن تنكسر؟

ما هي الهموم التي يحملها الدعاة والعاملين للدين حتى تكاد ظهورهم أن تنكسر؟

لذلك قالوا: مِن وضع الوزر عن النبي صلى الله عليه وسلم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان قبل البعثة يختلي بعيدًا عن قومه ويعلم أن ما هم فيه ضلال، لكن لا يعلم كيف يصلح،

من أصعب المشاعر التي تمر على الإنسان أن يرى الضلال ولكن لا يعلم طريق الإصلاح فيتألم، هذا حمل ثقيل على النفس! فحينما يُبصرك الله بطريق الإصلاح، فهذا وضع وزر، أن الله حمل عنك همًّا ثقيلًا، فمن معاني (ووضعنا عنك وزرك) أي: أنزل عليك الوحي وبصَّرك كيف تصلح، وكيف تتقرب إليه، وكيف تجعل الناس يتقربون إليه سبحانه وتعالى.

أحيانًا ترى أمرًا منكرًا وتريد أن تصلحه ولكن لا تدري كيف!

وهكذا الحريص على الناس، والحريص على نصرة الدين يتألم.

إذًا الدعاة يحملون على ظهورهم همومًا تكاد أن تكسر ظهورهم! لكن من رحمة الله أنه يخفف عنهم، وييسر لهم.

وأيضًا من معاني (ووضعنا عنك وزرك) أي: لن نكلفك بما يشق عليك، لأن النبي —صلى الله عليه وسلم— الله يقول عنه مخبرًا عن جهده في الدعوة: (لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين) [الشعراء:٣] أي ستهلك نفسك من أجل أن يؤمنوا.

فتنزل آيات تعالج الداعية نفسيًا فتخبره أنه (ما على الرسول إلا البلاغ)[المائدة:٩٩] (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد)[الرعد:٧]... هذه الآيات تصبر الداعية أنه ليس مسئولًا عن كل هذا.

---

٨ [عن الأغر المزني أبي مالك:] إِنَّه لَيُغانُ على قَلْبِي، وإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّه، في اليَومِ مِئَةَ مَرَّةٍ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٧٠٢ • [صحيح] •

أيضًا إذا افترضنا أن الوزر بمعنى الذنب، فهنا ترى كيف ينظر المؤمنون إلى ذنوبهم، ينظرون إليها على أنها أوزار تكاد تكسر ظهورهم، فالتعبير بـ (أنقض ظهرك) كلمة أنقض تعني: الحمل الثقيل لدرجة أن الظهر والمفاصل بدأت تصدر صوتًا من شدة الحمل.

انظر إلى أحمال الدعاة! سواء هموم نشر الدين أو كيف ينظر المؤمن إلى الذنوب، فالمؤمن يشعر أن ذنبه سيقصم له ظهره، وكما جاء في الأثر المروي عن ابن مسعود في البخاري قال: (المؤمن ينظر إلى ذنبه كأصل جبل يكاد أن يسقط عليه، والمنافق يرى ذنبه كذبابة وقعت على أنفه فقال بها هكذا)، فالمنافق يرى ذنبه شيئًا سيئًا –ذبابة– لكنه يستصغره –لا يمثل مشكلة– بخلاف المؤمن يرى ذنبه كأصل جبل!!

فكلمة (ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك) تبين لنا كيف ينبغي على الدعاة أن ينظروا إلى ذنوبهم.

وياحبذا لو أن المؤمن بعد الذنب وُفِّق لتوبة وطاعة، هنا يشعر بكلمة (ووضعنا عنك وزرك) كما في قول موسى: (قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له)[القصص:١٦] غفر له: هي تمامًا معنى وضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك.

فالمؤمن عندما يقع في ذنب ويبكي ويتألم ويتوب ويتضرع ثم يُوفَّق لطاعة، يشعر وكأنه خُلِقَ من جديد، فالنبي –صلى الله عليه وسلم– قال لكعب بن مالك (أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك)[٩] أي: خير يوم هو يوم أن تاب الله عليك.. هكذا ينظر المتقون إلى ذنوبهم.

---

٩ [عن كعب بن مالك:] أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، وَكَانَ، قَائِدَ كَعْبٍ مِن بَنِيهِ، حِينَ عَمِيَ، قَالَ: سَمِعْتُ كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ، يُحَدِّثُ حِينَ تَخَلَّفَ عن قِصَّةِ، تَبُوكَ، قَالَ كَعْبٌ: لَمْ أَتَخَلَّفْ عن رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في غَزْوَةٍ غَزَاهَا إلَّا في غَزْوَةِ تَبُوكَ، غيرَ أنِّي كُنْتُ تَخَلَّفْتُ في غَزْوَةِ بَدْرٍ، ولَمْ يُعَاتِبْ أحَدًا تَخَلَّفَ عَنْهَا، إنَّما خَرَجَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُرِيدُ عِيرَ قُرَيْشٍ، حتَّى جَمَعَ اللَّهُ بيْنَهُمْ وبيْنَ عَدُوِّهِمْ علَى غيرِ مِيعَادٍ، ولقَدْ شَهِدْتُ مع رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَيْلَةَ العَقَبَةِ، حِينَ تَوَاثَقْنَا علَى الإسْلَامِ، وما أُحِبُّ أنَّ لي بها مَشْهَدَ بَدْرٍ، وإنْ كَانَتْ بَدْرٌ، أذْكَرَ في النَّاسِ منها، كانَ مِن خَبَرِي: أنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أقْوَى ولَا أيْسَرَ حِينَ تَخَلَّفْتُ عنْه، في تِلكَ الغَزَاةِ، واللَّهِ ما اجْتَمَعتْ عِندِي قَبْلَهُ رَاحِلَتَانِ قَطُّ، حتَّى جَمَعْتُهُما في تِلكَ الغَزْوَةِ، ولَمْ يَكُنْ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُرِيدُ غَزْوَةً إلَّا ورَّى بغَيْرِهَا، حتَّى كَانَتْ تِلكَ الغَزْوَةُ، غَزَاهَا رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في حَرٍّ شَدِيدٍ، واسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا، ومَفَازًا وعَدُوًّا كَثِيرًا، فَجَلَّى لِلْمُسْلِمِينَ أمْرَهُمْ لِيَتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ، فأخْبَرَهُمْ بوَجْهِهِ الذي يُرِيدُ، والمُسْلِمُونَ مع رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ كَثِيرٌ، ولَا يَجْمَعُهُمْ كِتَابُ حَافِظٌ، يُرِيدُ الدِّيوَانَ، قَالَ كَعْبٌ: فَما رَجُلٌ يُرِيدُ أنْ يَتَغَيَّبَ إلَّا ظَنَّ أنْ سَيَخْفَى له، ما لَمْ يَنْزِلْ فيه وحْيُ اللَّهِ، وغَزَا رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ تِلكَ الغَزْوَةَ حِينَ طَابَتِ الثِّمَارُ والظِّلَالُ، وتَجَهَّزَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُسْلِمُونَ معهُ، فَطَفِقْتُ أغْدُو لِكَيْ أتَجَهَّزَ معهُمْ، فأرْجِعُ ولَمْ أقْضِ شيئًا، فأقُولُ في نَفْسِي: أنَا قَادِرٌ عليه، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بي حتَّى اشْتَدَّ بالنَّاسِ الجِدُّ، فأصْبَحَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ والمُسْلِمُونَ معهُ، ولَمْ أقْضِ مِن جَهَازِي شيئًا، فَقُلْتُ أتَجَهَّزُ بَعْدَهُ بيومٍ أوْ يَوْمَيْنِ، ثُمَّ ألْحَقُهُمْ، فَغَدَوْتُ بَعْدَ أنْ فَصَلُوا لأتَجَهَّزَ، فَرَجَعْتُ ولَمْ أقْضِ شيئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ، ثُمَّ رَجَعْتُ ولَمْ أقْضِ شيئًا، فَلَمْ يَزَلْ بي حتَّى أسْرَعُوا وتَفَارَطَ الغَزْوُ، وهَمَمْتُ أنْ أرْتَحِلَ فأُدْرِكَهُمْ، ولَيْتَنِي فَعَلْتُ، فَلَمْ يُقَدَّرْ لي ذلكَ، فَكُنْتُ إذَا خَرَجْتُ في النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فَطُفْتُ فيهم، أحْزَنَنِي أنِّي لا أرَى إلَّا رَجُلًا مَغْمُوصًا عليه النِّفَاقُ، أوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ مِنَ الضُّعَفَاءِ،

ولَمْ يَذْكُرْنِي رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حتَّى بَلَغَ تَبُوكَ، فَقَالَ: وهو جَالِسٌ في القَوْمِ بتَبُوكَ: ما فَعَلَ كَعْبٌ فَقَالَ رَجُلٌ مِن بَنِي سَلِمَةَ: يا رَسولَ اللَّهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، ونَظَرُهُ في عِطْفِهِ، فَقَالَ مُعَاذُ بنُ جَبَلٍ: بئْسَ ما قُلْتَ، واللَّهِ يا رَسولَ اللَّهِ ما عَلِمْنَا عليه إلَّا خَيْرًا، فَسَكَتَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قَالَ كَعْبُ بنُ مَالِكٍ: فَلَمَّا بَلَغَنِي أنَّه تَوَجَّهَ قَافِلًا حَضَرَنِي هَمِّي، وطَفِقْتُ أتَذَكَّرُ الكَذِبَ، وأَقُولُ: بِمَاذَا أخْرُجُ مِن سَخَطِهِ غَدًا، واسْتَعَنْتُ علَى ذلكَ بكُلِّ ذِي رَأْيٍ مِن أهْلِي، فَلَمَّا قيلَ: إنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قدْ أظَلَّ قَادِمًا زَاحَ عَنِّي البَاطِلُ، وعَرَفْتُ أنِّي لَنْ أخْرُجَ منه أبَدًا بشيءٍ فيه كَذِبٌ، فأجْمَعْتُ صِدْقَهُ، وأَصْبَحَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ قَادِمًا، وكانَ إذَا قَدِمَ مِن سَفَرٍ، بَدَأَ بالمَسْجِدِ، فَيَرْكَعُ فيه رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَعَلَ ذلكَ جَاءَهُ المُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إلَيْهِ ويَحْلِفُونَ له، وكَانُوا بضْعَةً وثَمَانِينَ رَجُلًا، فَقَبِلَ منهمْ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عَلَانِيَتَهُمْ، وبَايَعَهُمْ واسْتَغْفَرَ لهمْ، ووَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إلى اللَّهِ، فَجِئْتُهُ فَلَمَّا سَلَّمْتُ عليه تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَبِ، ثُمَّ قَالَ: تَعَالَ فَجِئْتُ أمْشِي حتَّى جَلَسْتُ بيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ لِي: ما خَلَّفَكَ، ألَمْ تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ. فَقُلْتُ: بَلَى، إنِّي واللَّهِ لو جَلَسْتُ عِنْدَ غيرِكَ مِن أهْلِ الدُّنْيَا، لَرَأَيْتُ أنْ سَأَخْرُجُ مِن سَخَطِهِ بعُذْرٍ، ولقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، ولَكِنِّي واللَّهِ، لقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ اليومَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى به عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، ولَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ، تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إنِّي لَأَرْجُو فيه عَفْوَ اللَّهِ، لا واللَّهِ، ما كانَ لي مِن عُذْرٍ، واللَّهِ ما كُنْتُ قَطُّ أقْوَى، ولَا أيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ، فَقَالَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أمَّا هذا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِيكَ. فَقُمْتُ، وثَارَ رِجَالٌ مِن بَنِي سَلِمَةَ فَاتَّبَعُونِي، فَقالوا لِي: واللَّهِ ما عَلِمْنَاكَ كُنْتَ أذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هذا، ولَقَدْ عَجَزْتَ أنْ لا تَكُونَ اعْتَذَرْتَ إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بما اعْتَذَرَ إلَيْهِ المُتَخَلِّفُونَ، قدْ كانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ لَكَ، فَوَاللَّهِ ما زَالُوا يُؤَنِّبُونِي حتَّى أرَدْتُ أنْ أرْجِعَ فَأُكَذِّبَ نَفْسِي، ثُمَّ قُلْتُ لهمْ: هلْ لَقِيَ هذا مَعِي أحَدٌ؟ قالوا: نَعَمْ، رَجُلَانِ، قَالَا مِثْلَ ما قُلْتَ، فقِيلَ لهما مِثْلُ ما قيلَ لَكَ، فَقُلْتُ: مَن هُمَا؟ قالوا: مُرَارَةُ بنُ الرَّبِيعِ العَمْرِيُّ، وهِلَالُ بنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفِيُّ، فَذَكَرُوا لي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْنِ، قدْ شَهِدَا بَدْرًا، فِيهِما أُسْوَةٌ، فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُما لِي، ونَهَى رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ المُسْلِمِينَ عن كَلَامِنَا أيُّها الثَّلَاثَةُ مِن بَيْنِ مَن تَخَلَّفَ عنْه، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وتَغَيَّرُوا لَنَا حتَّى تَنَكَّرَتْ في نَفْسِي الأرْضُ فَما هي الَّتِي أعْرِفُ، فَلَبِثْنَا علَى ذلكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فأمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وقَعَدَا في بُيُوتِهِما يَبْكِيَانِ، وأَمَّا أنَا، فَكُنْتُ أشَبَّ القَوْمِ وأَجْلَدَهُمْ فَكُنْتُ أخْرُجُ فأشْهَدُ الصَّلَاةَ مع المُسْلِمِينَ، وأَطُوفُ في الأسْوَاقِ ولَا يُكَلِّمُنِي أحَدٌ، وآتِي رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأُسَلِّمُ عليه وهو في مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فأقُولُ في نَفْسِي: هلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بَرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أمْ لَا؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا منه، فَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإذَا أقْبَلْتُ علَى صَلَاتِي أقْبَلَ إلَيَّ، وإذَا التَفَتُّ نَحْوَهُ أعْرَضَ عَنِّي، حتَّى إذَا طَالَ عَلَيَّ ذلكَ مِن جَفْوَةِ النَّاسِ، مَشَيْتُ حتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أبِي قَتَادَةَ، وهو ابنُ عَمِّي وأَحَبُّ النَّاسِ إلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عليه، فَوَاللَّهِ ما رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ: يا أبَا قَتَادَةَ، أنْشُدُكَ باللَّهِ هلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ ورَسولَهُ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ له فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ له فَنَشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللَّهُ ورَسولُهُ أعْلَمُ، فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وتَوَلَّيْتُ حتَّى تَسَوَّرْتُ الجِدَارَ، قَالَ: فَبَيْنَا أنَا أمْشِي بسُوقِ المَدِينَةِ، إذَا نَبَطِيٌّ مِن أنْبَاطِ أهْلِ الشَّأْمِ، ممَّنْ قَدِمَ بالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بالمَدِينَةِ، يقولُ: مَن يَدُلُّ علَى كَعْبِ بنِ مَالِكٍ، فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ له، حتَّى إذَا جَاءَنِي دَفَعَ إلَيَّ كِتَابًا مِن مَلِكِ غَسَّانَ، فَإذَا فِيهِ: أمَّا بَعْدُ، فإنَّه قدْ بَلَغَنِي أنَّ صَاحِبَكَ قدْ جَفَاكَ ولَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بدَارِ هَوَانٍ، ولَا مَضْيَعَةٍ، فَالْحَقْ بنَا نُوَاسِكَ، فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وهذا أيْضًا مِنَ البَلَاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بهَا، حتَّى إذَا مَضَتْ أرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الخَمْسِينَ، إذَا رَسولُ رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إنَّ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يَأْمُرُكَ أنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا؟ أمْ مَاذَا أفْعَلُ؟ قَالَ: لَا، بَلِ اعْتَزِلْهَا ولَا تَقْرَبْهَا، وأَرْسَلَ إلى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذلكَ، فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي: الحَقِي بأَهْلِكِ، فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ، حتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ في هذا الأمْرِ، قَالَ كَعْبٌ: فَجَاءَتِ امْرَأَةُ هِلَالِ بنِ أُمَيَّةَ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَقَالَتْ: يا رَسولَ اللَّهِ: إنَّ هِلَالَ بنَ أُمَيَّةَ شيخٌ ضَائِعٌ، ليسَ له خَادِمٌ، فَهلْ تَكْرَهُ أنْ أخْدُمَهُ؟ قَالَ: لَا، ولَكِنْ لا يَقْرَبْكِ. قَالَتْ: إنَّه واللَّهِ ما به حَرَكَةٌ إلى شيءٍ، واللَّهِ ما زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِن أمْرِهِ، ما كانَ إلى يَوْمِهِ هذا، فَقَالَ لي بَعْضُ أهْلِي: لَوِ اسْتَأْذَنْتَ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ في امْرَأَتِكَ كما أذِنَ لِامْرَأَةِ هِلَالِ بنِ أُمَيَّةَ أنْ تَخْدُمَهُ؟ فَقُلْتُ: واللَّهِ لا أسْتَأْذِنُ فِيهَا رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وما يُدْرِينِي ما يقولُ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا، وأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ؟ فَلَبِثْتُ بَعْدَ ذلكَ عَشْرَ لَيَالٍ، حتَّى كَمُلَتْ لَنَا خَمْسُونَ لَيْلَةً مِن حِينَ نَهَى رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عن كَلَامِنَا، فَلَمَّا صَلَّيْتُ صَلَاةَ الفَجْرِ صُبْحَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، وأَنَا علَى ظَهْرِ بَيْتٍ مِن بُيُوتِنَا، فَبَيْنَا أنَا جَالِسٌ علَى الحَالِ الَّتِي ذَكَرَ اللَّهُ، قدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي، وضَاقَتْ عَلَيَّ الأرْضُ بما رَحُبَتْ، سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ، أوْفَى علَى جَبَلِ سَلْعٍ بأَعْلَى صَوْتِهِ: يا كَعْبُ بنَ مَالِكٍ أبْشِرْ، قَالَ: فَخَرَرْتُ سَاجِدًا، وعَرَفْتُ أنْ قدْ جَاءَ فَرَجٌ، وآذَنَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بتَوْبَةِ اللَّهِ عَلَيْنَا حِينَ صَلَّى صَلَاةَ الفَجْرِ، فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، وذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، ورَكَضَ إلَيَّ رَجُلٌ فَرَسًا، وسَعَى سَاعٍ مِن أسْلَمَ، فأوْفَى علَى الجَبَلِ، وكَانَ الصَّوْتُ أسْرَعَ مِنَ الفَرَسِ، فَلَمَّا جَاءَنِي الذي سَمِعْتُ صَوْتَهُ يُبَشِّرُنِي، نَزَعْتُ له ثَوْبَيَّ، فَكَسَوْتُهُ إيَّاهُما، ببُشْرَاهُ واللَّهِ ما أمْلِكُ غَيْرَهُما يَوْمَئِذٍ، واسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبِسْتُهُمَا، وانْطَلَقْتُ إلى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فَيَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا، يُهَنُّونِي بالتَّوْبَةِ، يقولونَ: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ اللَّهِ عَلَيْكَ، قَالَ كَعْبٌ: حتَّى دَخَلْتُ المَسْجِدَ، فَإذَا رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ إلَيَّ طَلْحَةُ بنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حتَّى صَافَحَنِي وهَنَّانِي، واللَّهِ ما قَامَ إلَيَّ رَجُلٌ مِنَ المُهَاجِرِينَ غَيْرُهُ، ولَا أنْسَاهَا لِطَلْحَةَ، قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ علَى رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، قَالَ: رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، وهو يَبْرُقُ وجْهُهُ مِنَ السُّرُورِ: أبْشِرْ بخَيْرِ يَومٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ ولَدَتْكَ أُمُّكَ، قَالَ: قُلْتُ: أمِنْ عِندِكَ يا رَسولَ اللَّهِ، أمْ مِن عِندِ اللَّهِ؟ قَالَ: لَا، بَلْ مِن عِندِ اللَّهِ. وكانَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إذَا اسْتَنَارَ وجْهُهُ، حتَّى كَأنَّهُ قِطْعَةُ قَمَرٍ، وكُنَّا نَعْرِفُ ذلكَ منه، فَلَمَّا جَلَسْتُ بيْنَ يَدَيْهِ قُلْتُ: يا رَسولَ اللَّهِ، إنَّ مِن تَوْبَتِي أنْ أنْخَلِعَ مِن مَالِي صَدَقَةً إلى اللَّهِ وإلَى رَسولِ اللَّهِ، قَالَ رَسولُ

(ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك) أيضًا هذه لا يفعلها إلا الله

إذًا من معاني شرح الصدر

١. إعادة الوحي بعد الفتور

٢. أن يجعل الله لك الهمة والعزيمة لفعل كل أفعال الطاعات، رغم أنك أُمِرت بتبليغ الرسالة وحدك في أول الأمر، وقال النبي –صلى الله عليه وسلم– (أوذيت في الله ولم يؤذَ أحد وأُخِفْتُ في الله ولم يُخَفْ أحد)[١٠] أي: ابتدأت هذا الأمر وحدي فكنت وحدي أُؤْذَى في الله، فهناك لحظات كان النبي —صلى الله عليه وسلم— فيها وحيدًا.

(وضعنا عنك وزرك) قلنا أن من معانيها مغفرة الذنوب أو تبيين الأمور فتكون رؤية الإنسان واضحة.

(الذي أنقض ظهرك) قلنا أنها تدل على شدة الهموم التي يحملها الداعية سواء لنشر الدين أو حينما يذنب المؤمن المتقي فهو ينظر إلى ذنبه كأنه جبل يكاد أن ينقض عليه.

اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: أمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهو خَيْرٌ لَكَ. قُلتُ: فإنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الذي بخَيْبَرَ، فَقُلتُ: يا رَسولَ اللهِ، إنَّ اللهَ إنَّما نَجَّانِي بالصِّدْقِ، وإنَّ مِن تَوْبَتِي أنْ لا أُحَدِّثَ إلَّا صِدْقًا، ما بَقِيتُ. فَوَاللَّهِ ما أعْلَمُ أحَدًا مِنَ المُسْلِمِينَ أبْلَاهُ اللَّهُ في صِدْقِ الحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذلكَ لِرَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أحْسَنَ ممَّا أبْلَانِي، ما تَعَمَّدْتُ مُنْذُ ذَكَرْتُ ذلكَ لِرَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ إلى يَومِي هذا كَذِبًا، وإنِّي لَأَرْجُو أنْ يَحْفَظَنِي اللَّهُ فِيما بَقِيتُ، وأنْزَلَ اللَّهُ علَى رَسولِهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ علَى النبيِّ والمُهَاجِرِينَ والأنْصَارِ} إلى قَوْلِهِ {وَكُونُوا مع الصَّادِقِينَ} فَوَاللَّهِ ما أنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِن نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ أنْ هَدَانِي لِلْإِسْلَامِ، أعْظَمَ في نَفْسِي مِن صِدْقِي لِرَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، أنْ لا أكُونَ كَذَبْتُهُ، فأهْلِكَ كما هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فإنَّ اللَّهَ قَالَ لِلَّذِينَ كَذَبُوا - حِينَ أنْزَلَ الوَحْيَ - شَرَّ ما قَالَ لأحَدٍ، فَقَالَ تَبَارَكَ وتَعَالَى: {سَيَحْلِفُونَ باللَّهِ لَكُمْ إذَا انْقَلَبْتُمْ} إلى قَوْلِهِ {فَإنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ القَوْمِ الفَاسِقِينَ}، قَالَ كَعْبٌ: وكُنَّا تَخَلَّفْنَا أيُّها الثَّلَاثَةُ عن أمْرِ أُولَئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ منهمْ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ حِينَ حَلَفُوا له، فَبَايَعَهُمْ واسْتَغْفَرَ لهمْ، وأرْجَأَ رَسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ أمْرَنَا حتَّى قَضَى اللَّهُ فِيهِ، فَبِذلكَ قَالَ اللَّهُ: {وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا}. وليسَ الذي ذَكَرَ اللَّهُ ممَّا خُلِّفْنَا عَنِ الغَزْوِ، إنَّما هو تَخْلِيفُهُ إيَّانَا، وإرْجَاؤُهُ أمْرَنَا، عَمَّنْ حَلَفَ له واعْتَذَرَ إلَيْهِ فَقَبِلَ منه.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٤٤١٨ • [صحيح] •

١٠ [عن أنس بن مالك:] لقد أُوذيتُ في اللهِ وما يُؤذى أحَدٌ ولقد أُخِفْتُ في اللهِ وما يُخافُ أحَدٌ ولقد أتَتْ عليَّ ثلاثٌ مِن بيْنِ يومٍ وليلةٍ وما لي طعامٌ إلّا ما واراه إبْطُ بلالٍ

ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٦٥٦٠ • أخرجه في صحيحه

رفع الذكر

(ورفعنا لك ذكرك) أيضًا هذه لا يفعلها إلا الله سبحانه وتعالى، رفع الله عز وجل ذكر النبي –صلى الله عليه وسلم–.

هذه السورة كما قال جمهور المفسرين مكية، ونزلت في أشد أوقات الاستضعاف في مكة، وخاصة أن بعضهم قال أنها نزلت رقم ١٢ بعد سورة الضحى، لأن سورة الضحى كانت من أوائل ما أُنزل من القرآن.. فنزلت اقرأ ثم المدثر ثم حدث فتور للوحي –فهذه الفترة الأولى– ثم عاد الوحي ثم حدث فتور مرة ثانية للوحي ثم ابتدأ بعد الانقطاع الثاني بسورة الضحى، كل هذا حدث في البدايات، فمعنى أن تنزل سورة الشرح في البدايات وأن الله يقول له (ورفعنا لك ذكرك) أين هذا؟!

فالنبي –صلى الله عليه وسلم– ما زالت الدعوة في بداياتها في مكة، ومَن حوله –صلى الله عليه وسلم– يقولون عنه كاذب ومجنون وساحر وكاهن؛ فأين رفعنا لك ذكرك؟!

هذه من البشريات؛ اطمئن.

هذه الآية "ورفعنا لك ذكرك" بالضبط مثل قوله تعالى في سورة الضحى "ولسوف يعطيك ربك فترضى" أو "وللآخرة خير لك من الأولى"

الآخرة: الحالة الآخرة التي سوف تأتي أفضل من الحال التي تعيشها الآن.

"ورفعنا لك ذكرك" بشارة من الله ـعز وجلـ و هذا دلالة على صدق القرآن؛ أنه في وقت الاستضعاف ينزل "ورفعنا لك ذكرك" دليل أن الله سيتم هذا الأمر ولو كره الكافرون، لذلك كانوا يستغربون كيف في وقت الاستضعاف يبشر النبي –صلى الله عليه وسلم– المؤمنين؟ لأنه موقن بنصرة الدين من الله –سبحانه وتعالى–!

عندما تسمع الأذان؛ رغم الاستضعاف الذي نحياه، ماذا نقول؟ اللهم رب هذه (الدعوة التامة) والصلاة القائمة؛ هي تمت وستتم وتنتشر مهما "ولو كره الكافرون" [الصف:٨] ستنتشر رغمًا عنهم.

"ورفعنا لك ذكرك" فقيل إن الله –عز وجل– قرن ذكر النبي –صلى الله عليه وسلم– مع ذكر الله في كل أذان وفى كل إقامة، والأذان والإقامة لم يكونا شُرعا بعد، فكانت الآية بشريات بهذه الشرائع وبشريات بانتشار الدين

وقيل "رفعنا لك ذكرك": سينتشر اسم النبي –صلى الله عليه وسلم– في العالم كله، وهذا ما حدث الآن، ومن أكثر الأسماء انتشارًا اسم محمد.. فـ "رفعنا لك ذكرك": بشرى لنشر سنة النبي ــصلى الله عليه وسلمــ في العالم كله.

مع العسر الواحد يسر كثير

ثم قال الله ــعزو جلــ **"فإن مع العسر يسرًا * إن مع العسر يسرًا"**

ذكرنا أن "رفعنا لك ذكرك" لا يفعلها إلا الله؛ كما قال النبي ــصلى الله عليه وسلمــ لمن قال له إن مدحي زين وذمي شَين، فقال النبي ــصلى الله عليه وسلمــ: ذاك الله.

ثم تأتِ "إن مع العسر يسرًا إن مع العسر يسرًا"

الذي فعل هذه الأشياء ولا يستطيعها إلا هو؛ هو قادر على تيسير الأمر العسر .. إذًا وجود العسر في حياتك ليس نقصًا في قدرة الله.

إذًا الذي شرح الصدر، ووضع الوزر، ورفع الذكر، قادر على تيسير العسر، ولكنه قدَّر هذا العسر ابتلاءً و امتحانًا.

إذًا وجود العسر في حياتك ليس دليلًا على نقص قدرته؛ بل دليل على حكمته ولطفه، هناك حكمة من وراء العسر هذا، وأنه مجرد ابتلاء وامتحان، كما قال الله تعالى: "وَلَو يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنهُم وَلَٰكِن لِّيَبلُوَا بَعضَكُم بِبَعضٍۗ"[محمد:٤] وجود العسر هو امتحان، وهذا الامتحان محفوف بالرحمات و اللطف.. فقال تعالى: "فإن مع العسر" ولم يقل بعد، بل "مع العسر يسرًا" أكد الله ذلك لأن كثيرًا من الناس لا يبصر اليسر المدفون، والمخبوء، والموافق للعسر... كثير من الناس لا يبصره، أنت عندما تنظر لما

يمُرُّ بنا من أحداث الآن تتساءل أين اليسر فيما نحن فيه الآن؟ بعض أهل العلم قال: (إن مع العسر يسرًا)؛ تعني أن بدايات النصر ولحظات ولادة اليسر تبدأ من مجرد مجيء العسر.

فمثلًا عندما ازداد طغيان فرعون وهو في قمة الطغيان كان يربي موسى _عليه السلام_ في قصره، فقالوا كلمة "إن مع العسر يسرًا" تعني أن لحظات اليسر بدأت تنمو في وجود العسر، وبعضهم قال ليس فقط كذلك، لأن المعنى _الذي ذكرته الآن_ سيؤول معناه إلى أن بعد العسر يسر، لذلك هناك مَن قال ليس المعنى هكذا؛ وإنما المعنى أنه مهما كان هذا العسر فإن هناك خيرات نحصل عليها من وجود هذا العسر، يكفي تمييز الصف من المنافقين، يكفي رفع درجات المؤمنين، وأنه يتخذهم شهداء، يكفي ظهور عبوديات لم تكن موجودة من قبل؛ من البذل و العطاء، يكفي ظهور المجرمين على حقيقتهم وتمييز الصفوف، حِكَم لا يعلمها إلا الله تظهر في هذه الأوقات، كمّ العبوديات التي تظهر في الأزمات لا يتناسب أبدًا ولا يساوى الكم الذي يظهر في الرخاء، كم الطاعات التي تخرج من الناس؛ وهل هناك شهادة في الدين بدون حرب؟

إن أعلى درجات الدين؛ الجهاد ذروة سنام الإسلام، وأعلى الدرجات في الجنة الشهادة في سبيل الله.. وهل يتم الجهاد والشهادة بغير حرب؟ وبغير عسر؟

إذًا هذا العسر يُستخرَج به من الناس طاعات لم تكن موجودة، ويُنقَّى به الصف من المنافقين كما نرى الآن، كل أحد يظهر على حقيقته.

في الأوقات العصيبة والزلزلة تسقط الأوراق الضعيفة من الشجر، وحينما يُزلزَل المؤمنون، ويبتلوا ابتلاءً شديدًا يظهر الصف على حقيقته، وتظهر حقائق الدين واضحة بعد أن كان فيها تدليس، فتظهر واضحة، وتخرج عبوديات من أهل الإيمان، فقال الله _عز وجل_ "فإن مع العسر يسرًا" وقيل اليسر معناه: ما ينزل على صدرك من شرح وصبر، فرُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم -وإن كان الحديث ضعفه بعض أهل العلم- روي عن النبي _صلى الله عليه وسلم_ أنه قال: "نزلت المعونة من السماء على قدر المؤنة، ونزل الصبر من السماء على قدر المصيبة"[١١]، الله عندما يبتلي العبد يلطف به، يُنزِل

١١ [عن أبي هريرة:] إنَّ المعونةَ من اللهِ على قدرِ المؤونةِ وإنَّ الصبرَ يأتي على قدرِ المصيبةِ
ابن عدي (ت ٣٦٥)، الكامل في الضعفاء ١٤٢/٨ • [فيه] معاوية الأطرابلسي في بعض رواياته ما لا يتابع عليه

الصبر مع المصيبة في نفس الوقت، وقال النبي ـصلى الله عليه وسلمـ: "يُبتلَى المرء على قدر دينه"[١٢]، الابتلاء على قدر إيمانك تمامًا، تُرزَق من الإيمان ما تستطيع أن تقاوم به هذه المصيبة، لكن أنت الذي تُفرِّط.

"فإن مع العسر يسرًا"، اليسر المصاحب للعسر كثير، منها كما ذكرنا أن في لحظات العسر ينمو اليسر، كما ذكرنا أن فرعون هو الذى كان يربي ـموسى عليه السلامـ، و منها الصبر الذي ينزل أثناء العسر، ومنها درجات الإيمان التي يحصل عليها أهل الايمان أثناء العسر، ومنها ظهور المنافقين على حقيقتهم أثناء العسر، كل هذا هو في حقيقته يسر.

"إن مع العسر يسراً" إذًا الذي أنزل العسر هو قادر على الإتيان باليسر، وجاءت بصيغة التأكيد "فإنَّ مع العسر يسرًا إنَّ مع العسر يسراً".

(فإن) هذه تعني، فإذا علمت أن الله شرح صدرك، ووضع وزرك، ورفع ذكرك، فهو قادر على الإتيان باليسر، وهذا اليسر موجود.

وقيل تحدث من المسرات أثناء العسر أمور تُصبِّر الإنسان وهنا مشكلة؛ أن الإنسان دائمًا يريد في العسر النصر الكلي، بمعنى قال الله ـعز وجلـ في سورة التوبة: "إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَد نَصَرَهُ ٱللَّهُ" هذه الآية متى نزلت؟ في الهجرة، "إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَد نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذ أَخرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ ٱثنَينِ إِذ هُمَا فِي ٱلغَارِ"[التوبة: ٤٠]، إذًا ماذا كان النصر في هذا الوقت؟ صرف أعين المشركين عن رؤية النبي ـصلى الله عليه وسلمـ وأبي بكر؛ هذا هو النصر، إذًا هناك نصر جزئي، ليس النصر أن تأتي صاعقة تخسف بهم وتخسف بالجبل وينجو النبي ـصلى الله عليه وسلمـ وأبو بكر، لا، مجرد هذا الصرف كان نصرًا.

أن يؤمن أناس في وقت الاستضعاف رغم الشدة والبلاء هذا يسر موجود في ظل العسر، أن توفق لطاعات في وقت هذا العسر هذا يسر موجود، أن تُرزَق بأنواع من الطاعات في وقت العسر هذا يسر موجود، أن ينتشر الإيمان والإسلام في أماكن رغم الاستضعاف هذا يسر موجود.

---

١٢ [عن سعد بن أبي وقاص:] قلتُ يا رسولَ اللهِ أيُّ النّاسِ أشدُّ بلاءً قالَ الأَنبياءُ ثمَّ الأَمثلُ فالأَمثلُ؛ يُبتلى الرَّجلُ على حسَبِ دينِهِ، فإن كانَ في دينِهِ صلبًا اشتدَّ بلاؤُهُ، وإن كانَ في دينِهِ رقَّةٌ ابتلِيَ على قدرِ دينِهِ، فما يبرحُ البلاءُ بالعبدِ حتّى يترُكَهُ يمشي على الأرضِ وما علَيهِ خطيئةٌ.

الترمذي (ت ٢٧٩)، سنن الترمذي ٢٣٩٨ • حسن صحيح •

إذًا يجب أن ننظر للنصر الجزئي، لا يجب أن نفرح فقط بالنصر الكلي، الذي لا يفرح إلا بالنصر الكلي قد لا يفرح، يجب أن تفرح بالنصر الجزئي، عندما أهلك الله _عز وجل_ فرعون، كل كتب التاريخ تقريبًا تقول أن الذي أخذ العرش بعده هو فرعون آخر، أي أنهم خرجوا مع سيدنا موسى _عليه السلام_ وظلوا في التيه، ثم بعد ذلك فتح يوشع بن نون الأرض المقدسة، لم يعودوا مرة أخرى لمصر، والذي تولى الحكم بعد فرعون الهالك هو فرعون آخر، واستمر الأمر فترة، كان من الممكن أن يقولوا: وبمَ نفرح وقد مات فرعون وجاء آخر، لا، يجب أن نفرح بإهلاك الظالمين، إذا أهلك الله _عز وجل_ ظالمًا تفرح، حتى وإن جاء ظالم آخر، تفرح أن أهلكه الله _عز وجل_، هذه آية من آيات الله.

فالذي ينتظر دائمًا أن تحدث أمور عظيمة كلية، وأن الإسلام يجب أن يهيمن على العالم كله لكي يفرح، لا؛ الإنسان يفرح بتوفيق الله، بنصر الله، بمدد من الله _عز وجل_، في هذه اللحظات في ظل الأزمات؛ أن يوسف _عليه السلام_ يدخل عليه اثنين ويؤوِّل لهم رؤيا وهو في السجن؛ يفرح، توفيق من الله أنه رزقه اثنين، ويدعوهما إلى الله ويُؤوِّل لهما الرؤيا، حتى وهو داخل السجن، هذا هو شرح الصدر، فمن شرح الصدر أن ترى هذا اليسر المصاحب للعسر.

أكرر: من شرح الصدر أن تبصر هذا اليسر المصاحب للعسر، أن توفق لرؤيته.

هناك مَن يرى الدنيا كلها ظلام دائمًا، يتابع الفيس بوك أربعًا وعشرين ساعة لا يتابع إلا الأخبار المحبطة! كلما سألته يقول لك لا أمل، الأمور من سيء لأسوأ، كلما بشَّرته ببشرى لا يرى إلا الظلام الحالك، لا يرى أي خير مهما تبشره من مبشرات، هو _عياذًا بالله_ لا يرى قدرة الله في المعادلة، وهذا من مشكلات الإغراق في التحليلات والأخبار المحبطة، خاصةً مع قلب ضعيف ليس عنده زاد من الوحي يتحمل به هذه المصاعب؛ هذه مصيبة؛ أن يرَ الدنيا مظلمة لا يبصر أي يسر، يرى الدنيا كلها عسر، والله يؤكد ويقول "فإن مع العسر يسرًا إن مع العسر يسرًا"، وكثير من العلماء قال أن العسر هنا معرفة واليسر جاءت نكرة، فقالوا: العسر واحد واليسر يتكرر، فالعسر يكون عسر واحد واليسر يأتيه من أنواع مختلفة، وقالوا جاء العسر معرفة؛ أي أنت تعرف المشكلة، واليسر جاء نكرة لأنك قد لا تعرف الحل، "ويرزقه من حيث لا يحتسب"[الطلاق:٣] فتأتِ بشريات من الله واليسر من الله من كل الأنحاء، ظالم يهلكه الله هنا، وهنا آخر يسلم، هنا ثالث يرزقه الله بفكرة سديدة، هناك آخر يرزقه الله بعمل صالح، وتتوالى البشريات واليسر من الله -عز وجل- حتى يعم وينتشر، ف(كل يوم هو في

شأن)[الرحمن:٢٩] -سبحانه وتعالى-؛ ينصر مظلومًا، ويقصم ظالمًا، ويشفي مريضًا، هذه الأشياء نفرح بها "فإن مع العسر يسرًا إن مع العسر يسرًا"

ثم الختام التوجيهي في ختام السورة؛ ماذا أصنع في وقت الأزمات؟ ماذا أفعل في وقت العسر؟ فيقول الله -عز وجل- "فإذا فرغت فانصب و إلى ربك فارغب".

الحمدلله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده محمد صلى الله عليه وسلم.

- يقول الله عز وجل (فإن مع العسر يسرًا * إن مع العسر يسرًا) بعض العلماء قالوا لماذا تكررت هذه الآية؟

- فقيل إن مع العسر يسرًا.. العسر -الألف واللام للعهد- أي هذا العسر الذي تعهدونه وتعيشونه الآن؛ هذا العسر معه يسر، يسرًا: جاءت نكرة، أي يسرًا عظيمًا لا تعلمون كنهه، ولا تعلمون طريقته، ولا تعلمون كيف سيحدث، لكن معه يسر، ثم كررها، إن مع العسر: أي أن مع هذا العسر يسرًا آخر، هناك يسر ثانٍ -غير الأول- أيضًا عظيم لا تعلمون كيف يأتي ولا تعلمون طريقته، وقيل أيضًا لماذا تكررت يسرًا؟ كما قلنا في السابق ينبغي تكرار البشريات، لذلك هذه الآية تكررت مرتين... يجب أن تكرر أن مع العسر يسرًا، هذه معانٍ ينبغي أن تُكرر، والداعية يحتاجها، وليس معنى أنه داعية ويعمل للدين أنه غير محتاج، لا.. من يعمل للدين هم أكثر الناس احتياجًا لهذه المعاني، وهم أكثر الناس احتياجًا لتلقي القرآن، لأن القرآن هو الذي يكرر عليهم هذه المعاني، فكلما ازداد عمل الإنسان للدين ازداد احتياجًا لتلقي القرآن حتى يثبت! (فإن مع العسر يسرًا * إن مع العسر يسرًا)..

ماذا أفعل في وقت العسر ؟

ثم قال الله عز وجل **(فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب)**

كلمة (فَإِذَا فَرَغْتَ) لها أكثر من معنى، سنحاول أن نذكر ثلاث أو أربع معان لها، قيل (فَإِذَا فَرَغْتَ) من معاني (فَرَغْتَ) أي أتممت عملًا، يقال: هل فرغت من هذا العمل؟ أي هل انتهيت منه؟ فـ(فَإِذَا فَرَغْتَ) أي فإذا أتممت عملًا كنت تقوم به، وهذا فيه إشارة إلى ماذا؟ إلى أنك يفضل –وقد يجب في بعض المواطن– أن تُنهي العمل الذي بدأته، ليس كل فترة تستفتح عمل ثم تتركه، وتبدأ غيره ثم تتركه، تبدأ تحفظ القرآن ثم تتركه، تطلب علمًا ثم تترك، كل فترة تستفتح عملًا وتتركه، لا، (فَإِذَا فَرَغْتَ) وكأنها إشارة أنه ينبغي أن تتم العمل، وأن تفرغ منه، وأن تنتهي منه، ففيه إشارة إلى أن الله عز وجل يحب إتمام الأشياء، أن تتمها، بعد أن تتم الشيء دائمًا يأتِ إحساس للإنسان بأنه يريد أن يستريح، فربنا يقول له: لا... اغتنم هذه اللحظة وابدأ على الفور عملًا جديدًا، وهذا مشهور كفكاهة عندنا في كلية الطب؛ أنك بعد ما تنهي الامتحانات تصاب بحالة نسميها: "post exam syndrome"(متلازمة ما بعد الاختبارات).. أنك بعد الامتحانات تظل نائمًا شهرًا لا تريد من أي أحد أن يكلمك في أي شيء! تتمنى أن تغلق دماغك شهرًا على الأقل، تأخذ إجازة من التفكير في أي شيء، دين أو دنيا أو أي شيء.. تريد الراحة التامّة! فربنا يقول لك: لا... هذه الفترة خطر؛ لذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (صلاة في إثر صلاة كتاب في عليين)[١٣]،

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (من صام رمضان ثم أتبعه ستًا من شوال...)[١٤] الحديث..

وهذا يرشدنا لخطورة الفراغ، خطورة (فَإِذَا فَرَغْتَ)، خطورة أن تعيش في فراغ.

قال صلى الله عليه وسلم: {نعمتان مغبون}[١٥]، ماذا تعني مغبون؟ أي نعمة عظيمة أغلب الناس لا يعلم قيمتها، يفرط فيها، يزهد..

---

١٣ [عن أبي أمامة الباهلي:] صَلاةٌ فِي دُبُرِ صَلاةٍ -قال عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ: قال أبي: وقال غيرُه: في إثرِ صَلاةٍ- لا لَغوَ بينَهما، كِتابٌ في عِلِّيِّينَ.
شعيب الأرنؤوط (ت ١٤٣٨)، تخريج المسند ٢٢٢٧٣ • صحيح • أخرجه أبو داود (١٢٨٨)، وأحمد (٢٢٢٧٣) واللفظ له •

١٤ [عن أبي أيوب الأنصاري:] مَن صامَ رَمَضانَ ثُمَّ أتْبَعَهُ سِتًّا مِن شَوّالٍ، كانَ كَصِيامِ الدَّهْرِ.
مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ١١٦٤ • [صحيح] •

١٥ [عن عبدالله بن عباس:] نِعْمَتانِ مَغْبُونٌ فِيهِما كَثِيرٌ مِنَ النّاسِ: الصِّحَّةُ والفَراغُ.
البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٦٤١٢ • [صحيح] •

الغبن: هي الخسارة العظيمة، ليست أي خسارة، لأن الإنسان لا يعلم القيمة، الغبن: أنك تخسر خسارة عظيمة في شيء بسبب جهلك بقيمته.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (نعمتان مغبون فيهن كثير من الناس) -ما هم؟- (الصحة والفراغ).. أن يكون لديك وقت.. من أعجب الكلمات (أضيع وقت)، كلمة عجيبة تشبه بالتمام أضيع مالًا، تساوي أضيع صحة! هذه نعم عظيمة، حين يقول لك: أريد أن أضيع وقتًا، كمن يقول لك: لدي صحة زائدة أريد أن أتخلص منها، وعندي بعض المال أريد أن ألقيه في الشارع؛ هذا نفس الكلام بالضبط (فَإِذَا فَرَغْتَ) خطورة الفراغ أنه يصنع نفسًا متكاسلة، لذلك دائمًا معروف جدًا أن من يخطب الجمعة إذا مر أسبوع اثنين ثلاثة لا يخطب الجمعة؛ حين يصعد لخطبة الجمعة التي بعدها يشعر أنها ثقيلة جدًا عليه، ويشعر أن تحضير الخطبة صعب..

حفظ القرآن فترة ثم تركه أسبوع اثنين ثلاثة شهر.. يكون ثقيلًا عليه الرجوع، قيام الليل حين تمر بمرحلة فراغ دون طاعة؛ حين تود العودة تجد الموضوع ثقيلًا.. لذلك لا تطل هذه الفترات (فَإِذَا فَرَغْتَ) فترات الفراغ لا تطلها.

حتى لو نجحت في العمل، لا تطل، وانتقل إلى ما بعده.

(فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبَ) إذًا من معاني (فَرَغْتَ) أتممت العمل.

أيضًا من معاني (فَرَغْتَ) أي: انتهيت من عمل الدنيا -كل هذه أمور وردت سواء عن السلف أو عن المفسرين ونحن نحاول أن نجمعها- معنى آخر لـ(فَرَغْتَ): فرغت من عمل الدنيا، أحيانًا حين ينشغل أحدهم في الدنيا ويتعب، تحدثه نفسه: يكفيني ما أنا فيه من التعب في العمل، وليس مهمًا حضور دروس أو حفظ القرآن، لا... يجب أن تعلم أنك كما تتعب في العمل للدنيا، يجب أن تتعب في العمل للآخرة! حين تفرغ من عمل الدنيا تتعب في عمل الآخرة، لذلك قال (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبَ) لا تأتِ عند عمل الدين وتكسل، لابد أن تتعب هنا كما تتعب هناك، خذ من وقت نومك، خذ من وقت أكلك، خذ من وقت خروجك، لابد كما أنك تتعب للدنيا أن تتعب للدين (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ) النصب: التعب، فالداعية لابد أن يتعب، لابد أن يبذل... العامل للدين لابد أن يمر بلحظات نصب وتعب وبذل.

قيل أيضًا من معاني (فَإِذَا فَرَغْتَ) -فيما روي عن بعض السلف- فإذا فرغت من الجهاد فانصب في طاعة كالصلاة والدعاء...

- نحن قلنا أولًا إذا أتممت عمل دين ادخل في عمل للدين آخر،
- ومن معانيها إذا أتممت عمل دنيا ادخل في عمل دين،
- ومن معانيها إذا أتممت عمل دين حركي ادخل في عمل دين تعبدي...

بمعنى أن الأعمال الحركية ممكن أن تستنفذ طاقتك؛ مثلًا النزول، الخروج، الدعوة إلى الله عز وجل، البذل، الجهاد، خدمة المساكين والمحتاجين، هذه أعمال حركية، هذه الحركة أحيانًا تستنفذ من رصيدك الإيماني، تحتاج مقابلها وقتًا للسكون والهدوء... ذكر، استغفار، صلاة ، تَلقي القرآن، ليست جميعها أعمال حركية ولا جميعها أعمال تعبدية، تعبدية -المقصود المعنى الخاص للعبادة مثل الصلاة، الدعاء، الذكر، لا أقصد المفهوم الشامل للعبادة- وهذا من فقه السلف حين قال: فإذا فرغت من الجهاد فانصب في الصلاة، أي أنك لابد أن تجمع بين الاثنين حتى توفق في هذا العمل.

- وقيل (فَإِذَا فَرَغْتَ) أي إذا انتهت فترة العسر،

ربنا يقول (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * فَإِذَا فَرَغْتَ) دائمًا النفس البشرية في لحظات العسر تُستفز للبذل وللطاعة، أما لحظات الاسترخاء فتكون ضعيفة، لذلك حين تلاحظ الجو المكي كان جو احتدام الصراع وتعذيب وضرب؛ فكان أغلب المسلمين يذهبون للنبي صلى الله عليه وسلم يطلبون الإذن بالجهاد، يريدون أن يبذلوا لأن الأوضاع تشجع على البذل، ثم أنه لا يملك ما يخسره؛ هو أشعث أغبر يريد أن يبذل أي شيء لنصرة الدين، ويخرج من الواقع الأليم الذي هو فيه، ثم هاجروا إلى المدينة، استقرار وتجارة وطمأنينة... وجد نوعًا من أنواع الاستقرار... هيا نجاهد.. لا... لم كتبت علينا القتال؟

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ) أي قيل لهم كفوا أيديكم عن طلب القتال في مكة (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ) أي اكتفوا بإقامة الصلاة والزكاة (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ) فلما ذهبوا إلى المدينة

وكتب عليهم القتال﴿... فَلَمّا كُتِبَ عَلَيهِمُ القِتالُ إِذا فَريقٌ مِنهُم يَخشَونَ النّاسَ كَخَشيَةِ اللَّهِ أَو أَشَدَّ خَشيَةً وَقالوا رَبَّنا لِمَ كَتَبتَ عَلَينَا القِتالَ لَولا أَخَّرتَنا إِلى أَجَلٍ قَريبٍ قُل مَتاعُ الدُّنيا قَليلٌ وَالآخِرَةُ خَيرٌ لِمَنِ اتَّقى وَلا تُظلَمونَ فَتيلًا﴾[النساء: ٧٧] لِمَ نقاتل؟ نريد أي وسيلة أخرى!

هذا يدل على أن الإنسان كلما شعر بالاستقرار أكثر يرفض العمل للدين، وكلما أحس أنه في موطن ضغط تجده يريد أن يبذل، لذلك فترات الاسترخاء هذه خطر على الأمة، ودائمًا معروف في الدورات الحضارية لو أن أمة من الأمم تشعر أنها مضطهدة وستُستأصل ستبدأ في جمع طاقتها ويتحدون ويبحثون عن مخرج –أي أمة سواء مؤمنة أو كافرة– ويشعرون أنهم لابد أن يتحدوا ويبذلوا، فتبدأ تصعد، وبمجرد ما يصعد مؤشر الرخاء ويشعرون بنوع من الاستقرار والرفاهية، يبدأ المؤشر في النزول وتهلك؛ الدورات الحضارية غالبًا تمر بذلك، فربنا يقول (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ) فإذا انتهى العسر لا تعش اليسر طويلا، وكما كان العسر فيه طاعة، اليسر يكون فيه طاعة أيضًا، وكما كان هناك نصب في العسر لابد أن يكون هناك نصب في اليسر، أي لا بد أن تتعب، ليس معنى أنه لم يكن هناك مسجد وكنا نصلي على الأرض أننا حين نبني مسجدًا مكيفًا لا نتعب... بل نتعب ونبذل ونفتح أرضًا جديدة ونبني مسجدًا آخر.

فإذا فرغت: أي فإذا انتهى العسر فلا يشغلنك اليسر عن الطاعة، من يعبد الله في الرخاء قلّة ومن يعبد الله في الضراء كثرة، الذين طالبوا بالجهاد في مكة كُثر والذين طالبوا بالجهاد في المدينة قلّة.

(فإذا فرغت) كما قلنا حتى الآن أربع معانٍ:

١– أتممت العمل.

٢–انتهيت من مشاق الدنيا.

٣–انتهيت من العمل الحركي.

٤–انتهت فترة العسر.

وقلنا خطورة أوقات الفراغ وما تفعله من استرخاء في النفس وحالة من تدهور العزيمة، لذلك حين تجد إنسانًا كان يعيش فترات ضيق معينة تجده دائمًا متحمس للبذل، وكلما يعيش فترات رخاء أطول ويشعر

باستقرار يخاف على ما معه، تجده حذرًا يخاف أن يسلب منه الرخاء والرفاهية التي وصل إليها، كلما يعلو منصبه أكثر خاف عليه أكثر فلا يبذل للدين، تجده حين كان مستضعفًا يبذل للدين، ثم حين أصبح مُمَكّنًا بذله للدين يقل، بالرغم من أن المفترض كما قال ربنا: (الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ)[الحج:٤١] لابد حين يزيد تمكينك أن يزيد بذلك للدين، فقال الله عز وجل (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ) أي اتجه للبذل بقوة وعزيمة في طاعة الله سبحانه وتعالى.

وقيل من معنى آية (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ): بالرغم أنه لا زالت هناك أوقات عسر وأنت انتهيت من عمل فادخل في عمل آخر.

إذًا من أسباب انشراح الصدر في أوقات العسر هو "العمل".. بمعنى أن الأوضاع مغلقة وتشعر بخنقة وضيق ليس الحل أن تجلس مهمومًا، الهم يأتِ بالهمّ.. والنوم يأتِ بالنوم.. والبخل يأتِ بالبخل.. لكن العمل يأتِ بالنشاط، فحين تنتهِ من عمل تشعر بلذة الإنجاز والنجاح فتدخل في عمل آخر فيبدأ صدرك ينشرح.. كما تكلمنا المرة السابقة الحل في أوقات الليل هو البذل وليس القعود، الحل في أوقات الاستضعاف –كما في سورة البلد– هو الاقتحام، فهنا كذلك الحل في أوقات العسر هو العمل والتعب (فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ)..

كيف تصبر على العسر

وختام السورة كيف تصبر على العسر؟

كيف تصبر على نصب البذل؟

كيف تصبر على كل هذا؟

أن توحد رغبتك إلى الله **(وإلى ربك فارغب)** أي وإلى ربك وحده –سبحانه وتعالى.. عظم الرغبة فيما عند الله يسهل عليك ما تبذله، كما قال الله سبحانه وتعالى (إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ)[النساء:١٠٤]

الرجاء فيما عند الله ينسيك الألم، (إن تكونوا تألمون) أثبت الله الألم، ولكن قال سبحانه أن ما عندنا من رجاء فيه سبحانه وتعالى وفي ثوابه يسهل علينا الألم.

هنا كذلك؛ يقول الله أنه يوجد عسر ولكن (وإلى ربك فارغب) الرغبة في الفردوس الأعلى، الرغبة في رؤية وجه الله، الرغبة في النعيم المقيم، الرغبة في النجاة على الصراط، الرغبة في النجاة يوم القيامة، الرغبة في الشرب من حوضه صلى الله عليه وسلم؛ الرغبة في كل هذا يُسهل عليك البذل، يخرجك من الانشغال بالواقع المعاصر الذي تعيش فيه، إلى أن تفكر فيما عند الله.

أيضًا من معانيها الإخلاص، أنك لا تريد علوًا في الأرض (تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا)[القصص:٨٣]. قال الفضيل: قطعت هذه الآية كل الأماني.. أنك تريد فقط أن يرضى عنك الله وتوفق للعمل الصالح... فقال الله عز وجل (وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب) أي **عظم الرغبة فيما عنده يسهل عليك البذل**، إذًا **كلما تذكرت ثواب العمل سَهُل عليك**، حين تتذكر ثواب قيام الليل يسهل عليك، لذلك من أجمل الأشياء التي تساعدك على الحفاظ على صلاة الفجر في جماعة أن تتذكر دائمًا ثواب صلاة الفجر في جماعة، خاصة في أوقات الشتاء، وكذلك أي طاعة كلما صعبت عليك راجع ثوابها، اقرأ في أحاديث الترغيب والترهيب الخاصة بها، واقرأ الآيات التي نزلت فيها يسهل عليك العمل بها... كما لو كان مسافر يعمل بالخارج، ما الذي يسهل عليه الأمر؟ يقال له تحمل، أنت تعلم كم ستتقاضى من أجر، ثم إنها سنتين أو ثلاثة، فيسهل عليه الأمر... مع الله الثواب مهما تخيلته سيكون أعظم بكثير.

كما قال تعالى عن قيام الليل (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون)[السجدة:١٧] وأنت تقوم متعبًا وتقاوم نفسك حتى تُحصل هذا الثواب العظيم، فيعينك تذكر الثواب على القيام ويسهله عليك.